أضواء على تاريخ مدينتي برشك وشرشال خلال العصر الوسيط: قراءة في نصوص الرحلات والكتابات الجغرافية.

Lights on the History of the Cities of Barchek and Cherchell in the Middle Ages: A Reading of Travel Texts and Geographical Writings.

خديجة بورملة.

-جامعة مصطفى اسطمبولي؛ معسكر؛ (الجزائر).

- البريد الإلكتروني: *khadidja.bouramla@univ-mascara.dz*

تاريخ الإرسال: 2024/11/21؛ تاريخ القبول:2024/12/07؛ تاريخ النشر:2024/12/15.

الملخص:

يهدف هذا المقال إلى تسليط الضوء على تاريخ مدينتي برشك وشرشال خلال العصر الوسيط، وذلك بالاستعانة بكتابات الجغرافيين والرحالة الذين زاروا المدينة أو كتبوا عنها من أمثال ابن حوقل، والبكري، والإدريسي، والحميري، والحسن الوزان، نظرا لما تحويه هذه المؤلفات من معطيات ونصوص تاريخية لها ارتباط بالجوانب الطبيعية والجغرافية، وبعض التفاصيل حول الأوضاع الاقتصادية والاجتماعية.

إن أهمية هذه المصادر تكمن في كونها أكثر المصادر تفصيلاً ودقة في وصف المدينتين وتاريخهما الوسيط، مما يجعل منها مصادر أساسية لأي بحث أكاديمي يسعى إلى فهم وتفسير وتوثيق تاريخ هاتين

المدينتين، ثم إن دراسة واستقراء مثل هذه المصادر يتيح لنا الفرصة لفهم أفضل للسياق التاريخي الذي ازدهرت فيه مدينتي برشك وشرشال خلال العصر الوسيط، ويساعدنا على رسم صورة ولو جزئية عن التطورات والأحداث التي شهدتها المدينتين خلال الفترة محل الدراسة.

الكلمات المفتاحية: برشك؛ شرشال؛ العصر الوسيط؛ الجغرافيا؛ الرحلة.

Abstract:

This article aims to shed light on the history of the cities of Barchek and Cherchell during the Middle Ages, relying on the writings of geographers and travelers who visited these cities or wrote about them, such as Ibn Hawqal, Al-Bakri, Al-Idrisi, Al-Himyari, and Hassan Al-Wazzan. It draws on historical data and texts related to natural and geographical aspects, as well as some details about the economic and social conditions of the time.

The importance of these sources lies in the fact that they are among the most detailed and precise in describing the two cities and their medieval history, making them essential references for any academic research aiming to understand, interpret, and document the history of these two cities. Moreover, the study and analysis of such sources offer us the opportunity to better grasp the historical context in which Barchek and Cherchell thrived during the Middle Ages and help us sketch, even partially, a picture of the developments and events experienced by the two cities during the period under study.

Keywords: Barchek; Cherchell; Middle Age; Geography; Travel.

مقدمة:

إن المطلع على الكتابات التاريخية على اختلاف أنواعها حول مدينتي برشك وشرشال خلال الفترة الوسيطية، يجد أن ما كتب حول هاتين المدينتين هو قليل جدا بالمقارنة مع بعض المدن المعاصرة لهما والقريبة منهما، مثل تنس، مليانة، شلف، جزائر بني مزغنى وغيرها، ولذلك تجدر الإشارة منذ البداية إلى أن الكتابات الجغرافية هي المعول عليها في هذا الجانب للتأريخ للمدينتين، حيث نسعى من خلال هذا المقال في جهة مقابلة إلى تسليط الضوء على قيمة هذه المصادر الوسيطية، واستخدامها كأداة بحثية فعالة للتعريف بالتطور الحضاري لمدينتي برشك وشرشال، وتقديم رؤية أكاديمية دقيقة حول تاريخهما الوسيط، بناء على معطيات كتب الجغرافيا والرحلة.

في هذا الإطار تعد المعلومات التي أفردتها كتب الجغرافيا لبلاد المغرب الأوسط عموما ولمدينتي برشك وشرشال على وجه التحديد ذات فائدة كبيرة حيث نجد بها مجموعة من النصوص تمس الجوانب العمرانية والطبيعية والجغرافية، والتي نستطيع من خلالها إبراز التطور الذي عرفته هاتين المدينتين خلال العصر الوسيط، وعليه نطرح الإشكال التالي: ما هي الصورة التاريخية التي وضعها الجغرافيون والرحالة لمدينتي برشك وشرشال؟ أو بصيغة أخرى: كيف ساهمت كتب الجغرافيا والرحلة في التأريخ للمدينتين؟ وما مدى حضور هاتين المدينتين في الكتابات الجغرافية؟ وإلى أي درجة يمكن لهذه المصادر أن تسهم في تشكيل تصور شامل عن الحياة العامة فيهما؟

إن المتفحص لكتب الجغرافيا العربية يجد بهذه المصادر مادة تاريخية ذات أهمية، لدراسة تاريخ مدينتي برشك وشرشال خلال العصر الوسيط، وذلك ابتداء من كتابات الجغرافي والرحالة المشرقي ابن حوقل النصيبي (ت367 هـ/977م)، ونصوص الجغرافي الأندلسي أبو عبيد البكري (ت487 هـ/1094م)، لتستمر هذه الأوصاف إلى منتصف القرن العاشر الهجري(16م) مع الرحالة والجغرافي الحسن الوزان (ت 959هـ/ 1551م)، غير أن المادة الخبرية تتفاوت من مصدر لآخر، ومن جانب لآخر، وهذا راجع لعدة أسباب.

وقد كانت هذه الأنواع من المصادر الوسيطية خير معين للكثير من الباحثين سواء منهم المختصين في التاريخ أو علم الآثار في التأريخ لهاتين المدينتين، وعليه سبقني في التعريف بمدينتي برشك وشرشال خلال العصر الوسيط دراسات أكاديمية جادة لها أهميتها في هذا الباب، ولعل أهمها كتاب الباحث بشير مبارك الموسوم بـ: "صفحات مشرقة من مدن المغرب الأوسط مدينة برشك غوراية دراسة تاريخية"، وكذا مقاله المنشور بمجلة الإنسان والمجال المعنون بـ: "الإسهام العلمي لمدينة برشك خلال العصر الوسيط قراءة في دور ولدي الإمام"، حيث أسهم الأستاذ في التأريخ لمدينة برشك عموما والتعريف بتاريخها الوسيط على وجه الخصوص، هذا إضافة إلى التركيز على التأريخ للحركة العلمية بها من خلال التعريف بعالمين من علماء المدينة خصوصا، وعلماء المغرب الأوسط عموما ألا وهما ابني الإمام.

أما بالنسبة لمدينة شرشال نجد بعض الدراسات التي عرفت بالمدينة وتاريخها العام مثل مقال الباحثة زوليخة تكروشين الموسوم بـ:

"مدينة شرشال إطلالات تاريخية وحضارية"، ودراسة ثانية ركزت على التاريخ الوسيط للمدينة، هي دراسة الباحث محمد شيباني المعنونة بـ: "مدينة شرشال في العصر الوسيط: دراسة تاريخية من خلال كتب الرحالة والجغرافيين العرب".

1 -التعريف والموقع:

تشير المصادر الجغرافية إلى أن مدينتي برشك وشرشال هي من المدن القديمة التي تأسست قبل الفترة الاسلامية، حيث تربط تاريخهما القديم بالوجود الروماني في المنطقة، ولعل أهم من يشير إلى ذلك هو الحسن الوزان، فعن مدينة برشك يقول: «بُرِيشْك مدينة قديمة بناها الرومان على ساحل البحر المتوسط، بعيدة عن المدينة السابقة بعدة أميال»(الحسن الوزان، 1983، ج2: 32)، وهو ما يؤكده الرحالة الاسباني مارمول كربخال، الذي يسميها بـ"بريشكار"، أنها من بناء الرومان (مارمول كربخال، د.ت، ج2: 355).

في حين أن المصادر الجغرافية المتقدمة تعطي أوصافا مشتركة لمدينة شرشال، فهي مدينة قديمة أزلية (ابن حوقل، د.ت: 77؛ الحسن الوزان، 1983، ج2: 34) بها آثار للأول (البكري، 2003، ج02: 268؛ مؤلف مجهول، 1985: 132؛ الحميري، 1984: 340)، شيدها الرومان كذلك على ساحل البحر المتوسط (الحسن الوزان، 1983، ج2: 34).

كما نجد بهذه المصادر بعض الأوصاف التي تعطيها للآثار القديمة بالمدينة، وهنا يقول ابن حوقل: «بها آثار قديمة وأصنام من حجارة ومبان عظيمة»(ابن حوقل، د.ت: 77)، كما يصف صاحب كتاب الاستبصار أحد هذه المباني في قوله: «وفيها بنيان عجيب يسمى محراب

سليمان قد علا في الهواء» (مؤلف مجهول، 1985: 132)، وهو نفس النص الذي ينقله عنه الحميري (الحميري، 1984: 340).

في حين نجد أن جغرافي مشرقي وهو القزويني هو الذي يمدنا بأوصاف تفصيلية أكثر عن هذه الآثار، فيقول: «حدثني الفقيه أبو الربيع سليمان الملتاني أنه رأى بها أربع أسطوانات مفرطة الطول: ثلاث منها قوائم، والرابعة ساقطة، طول كل واحدة نحو خمسين ذراعا، وعرضها لا يحوطها باع رجلين، وأنها في غاية الملاسة والحسن والهندام كأنها جعلت في الخرط، وعلى كل أسطوانتين جائزة حجرية أحد رأسيها على هذه، والأخرى على هذه، وقد هندمت الجائزة أيضا مربعة مفرطة الطول، والأسطوانات زرق والجوائز بيض، وقد سقط بسقوط إحدى القوائم جائزتان وبقي على القوائم الثلاث جائزتان، فلو اجتمع أهل زماننا على إقامة الأسطوانة الساقطة ووضع الجائزتين الساقطتين عليهما، لا يمكنهم إلا أن يشاء الله»(القزويني، 1984: 208 -209).

وبالتالي تجمع الكتابات الجغرافية على أن مدينتي برشك وشرشال تعد من المدن القديمة ببلاد المغرب، وأنها لم تكن مستحدثة خلال الفترة الاسلامية، لكن السؤال المطروح هنا، هل استطاعت المدينتين استعادة أو تحقيق الاستمرار في الدور الذي لعبتاه خلال الفترة السابقة، خصوصا وأن مدينة شرشال كانت عاصمة لمقاطعة موريطانيا القيصرية في الفترة القديمة، أم أن الأحداث التي عرفتها بلاد المغرب الاسلامي خلال القرون الهجرية الأولى ستؤثر على المدينتين.

هنا نجد إجابات واضحة في كتب الجغرافيا، حيث يشير ابن حوقل إلى أن مدينة شرشال قد تم تخريبها(ابن حوقل، د.ت: 77)، من خلال الأوصاف التي قدمها للمدينة خلال القرن الرابع الهجري (10م)، وهو نفس الأمر الذي يشير إليه البكري في القرن اللاحق، وهو القرن الخامس الهجري(11م)، حيث يرتبها ضمن المراسي وليس المدن، فيقول عن مرسى شرشال، بأن عليه مدينة للأول غير مسكونة(البكري، 2003، ج02: 268)، ولعل التخريب الذي تعرضت له المدينة يرجع إلى أنها كانت تقع ضمن المناطق التي كانت محل نزاع سواء بين الفاطميين والقبائل المحلية، أو ضمن الصراع بين قبائل صنهاجة ومغراوة في فترة لاحقة.

وهو الأمر الذي يقودنا إلى التعرف على موقع المدينتين بالنسبة لبلاد المغرب، خصوصا إذا عرفنا أن القرن السادس الهجري(12م) هو القرن الذي بدأت فيه الكتابات الجغرافية تعطي أقساما واضحة لبلاد المغرب الاسلامي، وبدأ معها مصطلح المغرب الأوسط في الظهور، هنا يسعفنا كتاب نزهة المشتاق في اختراق الآفاق للإدريسي الذي يضع بلاد المغرب الأوسط ضمن الجزء الأول من الاقليم الثالث وفقا للتقسيم الجغرافي لتلك الفترة، كما يضع المدينتين ضمن بلاد الغرب الأوسط (الإدريسي، 1983: 124)، التي كانت تابعة في تلك الفترة لبني حماد، وهو ما يؤكده القزويني فيما بعد في قوله أن شرشال من أعمال بجاية (القزويني، 1984: 208).

غير أن المدينة ستعود إلى سالف عهدها كمحطة للصراع بين قوى جديدة هي الدولة الحفصية بإفريقية والدولة الزيانية بالمغرب الأوسط، وهو أمر يشير إليه الحسن الوزان في قوله: «ثم هجرت أثناء

الحروب القائمة بين ملوك تلمسان وملوك تونس، وبقيت خالية من السكان زهاء ثلاثمائة سنة حتى سقوط غرناطة في أيدي المسيحيين، فقصدها الغرناطيون إذ ذاك»(الحسن الوزان، 1983، ج2: 34)، وهنا يسعفنا ابن خلدون (أنظر التعليق رقم1) بالعديد من التفاصيل حول الصراع بين بني حفص وبني عبد الواد حول المدينتين محل الدراسة، وحتى حول النزاعات التي كانت قائمة بين قبيلة بني عبد الواد ممثلة في السلطة الزيانية وقبيلة مغراوة التي كانت تسيطر على مدينتي برشك وشرشال.

والظاهر أن هذه الصراعات التي وقعت المدينتين ضحيتها، إضافة إلى ما أشار إليه كل من الادريسي من تعرض مدينة برشك لغزوات النورمان خلال القرن السادس الهجري(12م)(الإدريسي، 1983: 158)، وهو ما يوضحه ابن الأثير في حوادث سنة 539 هـ قائلا: «وفيها خرج أسطول الفرنج من صقلية إلى ساحل افريقية والغرب، ففتحوا مدينة برشك، وقتلوا أهلها وسبوا حريمهم، وباعوه بصقلية على المسلمين»(ابن الأثير، 2003، مج 09: 334، الحميري، 1984: 88)، يفسر عدم تمكن مدينتي برشك وشرشال من تبوأ مكانة ضمن المدن الساحلية لبلاد المغرب الأوسط، مثلما حدث مع مدن تنس ووهران وجزائر بني مزغنى وبجاية وغيرها، حيث يصف الادريسي مدينة برشك بالمدينة الصغيرة، ومدينة شرشال بالمدينة الصغيرة القدر (الإدريسي، 1983: 158)، والظاهر أن مدينة شرشال على الأقل لم تستعد مكانتها إلا بعد هجرة الأندلسيين إليها.

من جهة ثانية تجدر الإشارة إلى وجود بعض النصوص الجغرافية التي توضح موقع المدينتين سواء بالنسبة لبعضهما البعض، أو موقعهما بالنسبة لمدن أخرى، فعن شرشال يقول الحميري: «مدينة في المغرب في ناحية برشك بينهما عشرون ميلا،...، ومن شرشال إلى جزائر بني مزغنا سبعون ميلا»(الحميري، 1984: 340)، وهو نفس قول الادريسي: «ومدينة برشك مدينة صغيرة على تل،...، ومنها إلى شرشال عشرون ميلا،...، ومن شرشال إلى الجزائر لبني مزغنة سبعون ميلا» (الإدريسي، 1983: 158 -159)، هذا إضافة إلى نص آخر للحميري يحدد فيه موقع مدينة برشك بالنسبة لتنس، قائلا: « بين تنس وبرشك في الساحل ستة وثلاثون ميلا»(الحميري، 1984: 88).

أما مارمول كربخال فيضع مدينة شرشال في موقع وسط بين مدينتي تنس والجزائر، حيث تفصلها عنهما نفس المسافة التي يقدرها بخمسة عشر فرسخا على الساحل، وعشرة فراسخ في البحر(مارمول كربخال، د.ت، ج2: 355).

2 -الحياة الاقتصادية:

في هذا الجانب نجد مجموعة من النصوص الجغرافية التي تتحدث عن مدينتي برشك وشرشال من الناحية الاقتصادية، حيث يوجد بها إشارات إلى الزراعة والمحاصيل الزراعية، والحرف المشهورة والمنتشرة بالمدينتين، إضافة إلى المبادلات التجارية خصوصا منها المحلية.

1.2. الزراعة:

تدل المعلومات التي أوردتها كتب الجغرافيا على أن بلاد المغرب الأوسط عموما هي بلاد ذات إنتاج زراعي وافر، تتنوع فيها المحاصيل

الزراعية من منطقة إلى أخرى، حتى أن كل مدينة من مدنه بالإضافة إلى اشتهارها بإنتاج محصول معين، تقوم بإنتاج مواد زراعية مختلفة (بورملة، 2011 -2012: 43)، ولعل مدينتي برشك وشرشال لم تخرجا عن هذا الإطار.

فعن المحاصيل الزراعية التي كانت تنتجها مدينة برشك مثلا، يقول ابن حوقل: «...، وبها فواكه حسنة غزيرة، وسفرجل معنّق كالقرع الصغار وهو طريف، وأعناب، ...، ولها بادية يشتارون العسل من الشجر والأجباح لكثرة النحل بالبلد، وأكثر أموالهم الماشية ولهم من الزرع والحنطة والشعير ما يزيد على حاجتهم»(ابن حوقل، د.ت: 77، الإدريسي، 1983: 158؛ الحميري، 1984: 88).

أما عن الانتاج الفلاحي لمدينة شرشال، فيعدده الإدريسي على الشكل التالي: «...، وبها فواكه حسنة كثيرة وسفرجل كبير الحجم، ذو أعناق كأعناق القرع الصغار، وهو من الطرائف غريب في ذاته، وبها كروم وبعض شجرتين، وما دار بها بادية لأهلها مواش وأغنام كثيرة، والنحل عندهم كثير والعسل بها ممكن، وأكثر أموالهم الماشية، ولهم من زراعة الحنطة والشعير ما يزيد على الحاجة»، (الإدريسي، 1983: 159؛ الحميري، 1984: 340).

ولعل هذه الوفرة والتنوع في المحاصيل الزراعية، يعود بالدرجة الأولى إلى وفرة المياه بالمنطقة، وهو الأمر الذي يؤكده كل من ابن حوقل والإدريسي بأن للمدينتين مياه جارية وآبار معين (ابن حوقل، د.ت: 77؛ الإدريسي، 1983: 159).

ويبدو أن مدينتي برشك وشرشال قد احتفظتا، على الرغم من الأحداث والصراعات التي مرت عليهما، بمكانتهما في المجال

الفلاحي إلى نهاية العصر الوسيط، حيث يشير الحسن الوزان إلى الرخاء الذي عرفته مدينة برشك في قوله: «تكثر الخيرات في بريشك لا سيما التين، وتنتج البادية الجميلة من حولها كثيرا من الكتان والشعير»(الوزان، 1983، ج2: 33)، وهو ما يؤكده مارمول كربخال في قوله: «وتجود في أرضهم الزروع من قمح وشعير وكتان، كما تكثر عندهم الماشية»(مارمول كربخال، د.ت، ج2: 355).

وهنا تجدر الإشارة إلى الدور الذي قام به المهاجرون الأندلسيون في ازدهار الزراعة ببلاد المغرب الأوسط عموما، وبالمدينتين محل الدراسة على وجه التحديد، وهو ما تؤكده النصوص الجغرافية المتأخرة ككتابات الحسن الوزان ومارمول كربخال، حيث يشير هذا الأخير إلى امتلاك مسلمي الأندلس للأراضي الزراعية بمدينة شرشال، وغرسهم للكثير من أشجار الكروم والزيتون في عرصات تقع داخل الأسوار القديمة(مارمول كربخال، د.ت، ج2: 356).

إذن يمكن القول بأن مدينتي برشك وشرشال قد اشتهرتا خلال العصر الوسيط بوفرة وتنوع الانتاج الفلاحي من حبوب كالقمح والشعير والكتان، وفواكه كالتين والعنب والسفرجل، وكثرة الأشجار كأشجار الكروم والزيتون والتوت، إضافة إلى توفر أعداد كبيرة من الماشية، وكثرة النحل لإنتاج العسل، وهذا راجع لسببين رئيسيين هو وفرة مصادر المياه، والدور الذي لعبه أهل الأندلس في هذا المجال.

2.2. الحرف:

في هذا الجانب تبخل علينا المصادر الجغرافية المتقدمة بالمعلومات، حيث لا نجد أي نصوص يمكن من خلالها التعرف على الحرف التي كانت منتشرة بمدينتي برشك وشرشال خلال الفترة المدروسة، وبالتالي سنكتفي هنا بالنصوص المتأخرة لكل من الحسن الوزان ومارمول كربخال اللذان نجد بكتابيهما بعض الإشارات حول الحرف التي مارسها سكان المدينتين.

فمن بين أنواع الحرف والصناعات التي كانت منتشرة بالمدينتين، الصناعة النسيجية، حيث يذكر الحسن الوزان أن معظم أهل برشك يمتهنون حرفة حياكة الأقمشة(الوزان، 1983، ج2: 32 - 33)، ويشير كربخال هو الآخر إلى أن معظم سكان برشك يشتغلون بصناعة النسيج من النوع الخشن(مارمول كربخال، د.ت، ج2: 355).

أما بالنسبة لمدينة شرشال فيذكر الحسن الوزان أن الغرناطيين بعد أن هاجروا من الأندلس واتخذوا من هذه المدينة مستقرا لهم، قد اشتغلوا بصناعة الحرير، وذلك لتوفر أشجار التوت الأبيض والأسود بالمدينة(الوزان، 1983، ج2: 34)، ويوضح مارمول كربخال أن الأندلسيين قد قاموا بغرس أشجار التوت بأنفسهم، وهي الأشجار التي تتغذى عليها دودة القز المنتجة للحرير، الذي أصبح أهم مواردهم لأن البلد طيب لمثل هذا النشاط(مارمول كربخال، د.ت، ج2: 356).

هذا إضافة إلى الإشارة التي نجدها لدى الحسن الوزان في كتابه وصف افريقيا والتي يوضح فيها اشتغال الغرناطيين كذلك بصناعة السفن للملاحة بمدينة شرشال(الوزان، 1983، ج2: 34)، وهو أمر مرتبط بموقع المدينة الوسط ضمن سواحل بلاد المغرب الأوسط.

3.2. التجارة:

هذا الجانب هو الآخر لا تتوفر فيه النصوص الجغرافية التي بين أيدينا على الكثير من المعطيات التاريخية المتعلقة بالنشاط التجاري للمدينتين، لكن هذا لا يمنع من إحداث بعض الإسقاطات التاريخية لما عرفت به المنطقة خلال العصر الوسيط، خصوصا فيما يتعلق بالمبادلات المحلية، وأن الكثير من مدن بلاد المغرب الأوسط كانت لها أنشطة تجارية على المستوى المحلي، سواء بين مدن المغرب الأوسط نفسها، أو بينها وبين كل من افريقية والمغرب الأقصى، هذا إضافة إلى ما عرفت به المراكز التجارية الساحلية من مبادلات هامة على مستوى حوض البحر المتوسط.

فبالنسبة للمبادلات الداخلية أو المحلية يشير الحسن الوزان إلى أن أهل برشك ينقلون الكثير من التين والكتان بحرا إلى الجزائر وبجاية وحتى تونس، ويستفيدون من ذلك ربحا حسنا(الوزان، 1983، ج2: 33)، وهو الأمر الذي يشير إليه كذلك مارمول كربخال عن شهرة المدينة في إنتاج وتصدير التين إلى المناطق المجاورة وخصوصا التين المجفف، وذلك في قوله: «وعندهم أجود ثمار التين في افريقيا، وتحمل إلى تنس والجزائر وقسنطينة، وإذا كانت يابسة فإنها تحمل إلى جميع بلاد البربر إلى حدود تنس»(مارمول كربخال، د.ت، ج2: 355).

وعلى الرغم من عدم توفر كتابات جغرافية توضح الدور الذي لعبته المدينتين في التجارة البحرية الخارجية لبلاد المغرب الأوسط، إلا أن هذا لا يمنع من الاستعانة ببعض الدراسات الحديثة التي تشير إلى أهمية مدينة شرشال في المبادلات التجارية في الحوض الغربي للبحر

المتوسط، وخصوصا مع جزيرة ميورقة، حيث يشير شارل ايمانويل ديفورك إلى وجود شراكات تجارية ما بين التجار المغاربة المسلمين واليهود والتجار الأجانب، وهو يعطينا مثال لشركة ميورقية كانت لها شراكات بمستغانم وشرشال، وفي هذه الشركات يحصل الرأسمالي أو مجموع الرأسماليين المقيمين بالمدن، والذين يعملون على شحن البضائع على ثلاثة أرباع الربح، ويحصل الشريك المقيم الذي يستقبل البضائع بالموانئ على الربع، وهكذا لا تحتاج المجموعة التجارية المشكلة من الشركاء إلى مرافقة بضائعهم (Dufourcq, CH, E, 1966: 60-61).

من جهة ثانية تشير النصوص الجغرافية إلى مرسى مدينة شرشال مثلما ورد عند ابن حوقل والبكري، حيث يضع هذا الأخير مرسى شرشال ضمن مراسي بلاد المغرب، ويحدد موقعه بين مرسى مدينة تنس ومرسى جزائر بني مزغنى، ويقول أن له أحساء ماء يكنّ بشرقيه وغربيه(البكري، 2003، ج02: 268)، ولا يستبعد أن يكون هذا المرسى قد استخدم في عملية المبادلات التجارية خصوصا المحلية منها، هذا إضافة إلى ما يمكن استنتاجه لما ورد سابقا لدى الحسن الوزان، بأن الغرناطيين قد قاموا بصناعة السفن بمدينة شرشال، ولن يتم لهم ذلك دون أن يكون لهذا المرسى نشاط بحري.

3 -المظاهر العمرانية:

يبدو أن الآثار المعمارية القديمة الهامة بمدينتي برشك وشرشال قد طغت على الأوصاف الجغرافية لجغرافيي العصر الوسيط، وبالتالي لا نجد أي مصدر جغرافي يخلو من نصوص تتحدث عن المواقع الأثرية

القديمة للمدينتين، غير أن هذا لا يمنع من وجود معالم عمرانية تعود إلى الفترة الاسلامية، وخصوصا المسجد.

يشير الوزان إلى مسجد مدينة شرشال في قوله: «ويظهر منها قرب البحر مسجد كبير عال جدا ما زال محرابه قائما إلى الآن، وكله مكسو بالمرمر من الداخل»(الوزان، 1983، ج2: 34)، غير أننا لا نجد أي نصوص جغرافية تتحدث عن مساجد مدينة برشك، سوى إشارة واردة في رحلة ابن خلدون، وذلك في معرض حديثه عن ابني الإمام، وهما من أشهر علماء وفقهاء المغرب الأوسط خصوصا، والمغرب الاسلامي عموما، حيث يقول عنهما: «... أخوين من أهل برشك، من أعمال تلمسان، واسم أكبرهما: أبو زيد عبد الرحمن، واسم الأصغر: أبو موسى عيسى، وكان أبوهما إماما ببعض مساجد برشك ...» (ابن خلدون عبد الرحمن، 2005: 46).

ومن معالم مدينة شرشال كذلك التي يذكرها الحسن الوزان، القلعة والدور التي قام الأندلسيون بتجديدها وبنائها، وذلك في قوله: «وكان هناك فيما مضى من الزمن قلعة عظيمة قائمة على صخرة يراقب منها البحر على مسافة بعيدة، ... فقصدها الغرناطيون إذ ذاك وأعادوا بناء عدد مهم من دورها، وجددوا القلعة ووزعوا الأراضي بينهم، ... فعاشوا في رخاء دائم حتى أصبحوا يسكنون في مائتين وألف بيت» (الوزان، 1983، ج2: 34).

ويتمم كلام الحسن الوزان، ما وضعه مارمول كربخال من نصوص تؤكد على الدور الهام الذي لعبه الأندلسيون (الغرناطيون) في تجديد المدينة بعد أن ظلت خالية لمدة ثلاث قرون، وفي هذا الصدد

يقول: «... وظلت على تلك الحال مدة من ثلاثة قرون إلى أن جاز عدد من الأندلسيون إلى افريقيا بعد أن استعادها فرديناند، فقام بعضهم يعيد بناء القلعة والدور التي رأوا فائدة في إصلاحها، وشيئا فشيئا قام العمران بهذا السهل على أيدي المدجنين وأهل تاكارت ومسلمي الأندلس المتصفين بالشهامة والحذق ... حتى إنك تجد اليوم بهذه المدينة أكثر من خمسة آلاف دار ... وما تزال تظهر في البحر عند هدوئه دور عديدة غمرتها المياه، وبعض هذه الدور ما يزال قائما برمته إلا ما كان من سقوفها المنهارة»(مارمول كربخال، د.ت، ج2: 356).

أما عن معمار مدينة برشك فلا نجد سوى إشارة إلى الأسوار التي يوضح الحسن الوزان أنها بنيت من أنقاض البنايات الرومانية التي تكثر بالمدينة(الوزان، 1983، ج2: 33، مارمول كربخال، د.ت، ج2: 355).

خاتمة:

نستشف مما ورد في الكتابات الجغرافية الوسيطية أهمية ومكانة مدينتي برشك وشرشال في تاريخ بلاد المغرب الأوسط، وهذا على الرغم من أن المدينتين قد تعرضتا خلال فترات مختلفة من العصر الوسيط إلى التخريب، إذ كانتا محل صراع بين قوى مختلفة في المنطقة، لكن هذا لم يمنع المدينتين وسكانهما من المحافظة على نشاطاتهم الاقتصادية المختلفة، حيث تتفق النصوص الجغرافية على غناهما من الناحية الطبيعية والزراعية، مما كان له انعكاس إيجابي على الممارسات الحرفية، والمبادلات التجارية بفضل موقعهما الاستراتيجي المطل على البحر المتوسط، هذا إضافة إلى أهمية معالم المدينتين العمرانية سواء القديمة أو الاسلامية، وكذا الإشارات

العديدة إلى الدور الأساسي الذي لعبه الأندلسيون والغرناطيون على وجه التحديد في الازدهار الذي عرفته المدينتين مع نهاية الفترة الوسيطية.

التعليقات:

1 -لمزيد من التفاصيل، انظر: ابن خلدون عبد الرحمن، تاريخ ابن خلدون، ج7، ص: 86، 90، 93، 124، 133 - 134، 160، 292 -293.

قائمة المصادر والمراجع:

1 -ابن الأثير أبو الحسن علي بن أبي الكرم، (2003)، الكامل في التاريخ، ط4، بيروت: دار الكتب العلمية.

2 -الإدريسي أبو عبد الله، (1983)، **القارة الافريقية وجزيرة الأندلس، مقتبس من كتاب نزهة المشتاق**، تحقيق: اسماعيل العربي، الجزائر: ديوان المطبوعات الجامعية.

3 -البكري أبو عبيد عبد الله بن عبد العزيز بن محمد، (2003)، **المسالك والممالك**، تحقيق: جمال طلبة، ط 1، بيروت: دار الكتب العلمية.

4 -بورملة خديجة، (2011 -2012)، **صورة المغرب الأوسط في كتابات الرحالة والجغرافيين العرب والمسلمين**، مذكرة ماجيستير غير منشورة لنيل شهادة الماجيستير في التاريخ الوسيط، جامعة معسكر، الجزائر.

5 -الحميري محمد بن عبد المنعم، (1984)، **الروض المعطار في خبر الأقطار**، تحقيق: إحسان عباس، ط 2، بيروت: مكتبة لبنان.

6 -ابن حوقل النصيبي، (د.ت)، **كتاب صورة الأرض**، ط 2، بيروت: دار صادر.

7 -ابن خلدون عبد الرحمن بن محمد الحضرمي الاشبيلي، (2005)، **رحلة ابن خلدون**، تعليق: محمد بن تاويت الطنجي، ط 2، بيروت: دار الكتب العلمية.

8 -ابن خلدون عبد الرحمن، (2000)، **تاريخ ابن خلدون المسمى ديوان المبتدأ والخبر في تاريخ العرب والبربر ومن عاصرهم من ذوي الشأن الأكبر**، وضع حواشيه: خليل شحادة، بيروت: دار الفكر.

9 -القزويني زكريا بن محمد بن محمود، (1984)، **آثار البلاد وأخبار العباد**، بيروت: دار بيروت للطباعة والنشر.

10 -كربخال مارمول، (د.ت)، **إفريقيا**، ترجمة: محمد حجي، محمد زنيبر وآخرون، الرباط: دار نشر المعرفة.

11 -مؤلف مجهول، (1985)، **كتاب الاستبصار في عجائب الأمصار، وصف مكة والمدينة ومصر وبلاد المغرب**، تعليق: سعد زغلول عبد الحميد، الدار البيضاء: دار النشر المغربية.

12 -الوزان الحسن بن محمد، (1983)، **وصف افريقيا**، تحقيق: محمد حجي، محمد الأخضر، ط 2، بيروت: دار الغرب الإسلامي.

13- Dufourcq , CH, E, (1966), ***l'Espagne Catalane et le Maghreb aux XIIIe et XIV siècles - de la bataille de las navas de tolosa (1212) à l'avènement du sultan mérinide Abou –l- Hasan (1331)***, Paris: presse universitaire de France.